الخطاب الديني في فكر جمال عبد الناصر

٤٠ عاما على ثورة يوليو

د. أحمد موصللي(*)

تَمحوَرَ الفقهُ الثوري عند جمال عبدالنّاصر على ركيزتين: أولاهما محاربة الاستعمار والصهيونيّة والرجعيّة العربيّة؛ وثانيتُهما الفكر القومي التوحيدي النابع من الجذور الإسلاميّة الحضاريّة. ويركّز هذا المقال على تحديد إطار القوميّة العربيّة وأصولها. وهي، أوّلاً، الاسلام كمصدر للمُثُل العليا وكقوّةٍ حضاريّة إيمانيّة ومستودع دائم للحوافز والبواعث؛ وهي، ثانياً، القوميّة كأساسٍ للدين وتكوينها جزءاً منه؛ وهي، ثالثاً، الإسلام كمنهج فكري وتنظيمي.

لكنْ لا بدَّ أوّلاً من تمهيد لأفعال الرئيس جمال عبد النّاصر وأقواله. فعبد النّاصر نشأ في بيئة دينيّة، وكان يلجأ في شبابه إلى المسجد ويقرأ في التاريخ والسياسة والدين الإسلامي. ويقول البعض إنّه كان منتسباً إلى الإخوان المسلمين قبل الثورة، إلا أنّ عبد النّاصر ينكر ذلك وإنْ كان يقرّ بعلاقته الشخصيّة والقويّة بحسن البنّا[1]. ولقد وظّف عبد النّاصر الدين من أجل تحويل الثورة العسكريّة إلى ثورة شعبيّة في الفترة الممتدّة بين عام ١٩٥٢ وعام ١٩٥٤. ومنذ عام ٥٤ حتّى ٥٨ ألغى عبد النّاصر الأحزاب، ثمّ أوقف نشاط «الإخوان» بعد أحداث مارس ١٩٥٤ وكرّس سيادة النظام؛ فألغى المحاكم الشرعيّة الإسلاميّة والمجالس الملّية القبطيّة واستثمر الأوقاف غير المستعملة.

كما نصّ دستور ١٩٥٦ على أنّ الإسلام هو دين الدولة الرسمي، ودُرِّست مادّة التربية الإسلاميّة في كلّ مراحل التعليم غير الجامعي. وفي الفترة ما بين عامي ١٩٥٨ و١٩٦١ حصلت تجربة الوحدة المصريّة السوريّة وزادت المساعدات لثورة الجزائر وغُلّبت الاعتبارات السياسيّة على ما عداها. وعام ١٩٦١ أقرَّ مجلسُ الأمّة إعادةَ تنظيم الأزهر والهيئات التي يشملها، واستُحدثت كلّيات ومجالس في التجارة والطبّ واللغات والترجمة. وبعد الانفصال، أي بين عامي ١٩٦١ و١٩٦٥، ركّز عبد النّاصر على انتقاد الأنظمة اليمينيّة، وجاءت حرب اليمن فوقف عبد الناصر إلى جانب الجمهوريّين. ومن ثمّ أنشأ محطّةَ إذاعةٍ خاصّة ببثّ القرآن الكريم.[2]

وبين تاريخ إصلاح الأزهر وعام ١٩٧٣ ازداد عدد طلّابه خمسة أضعاف.[3] وحتّى أثناء الصدامات العنيفة بين النظام وجماعة سيّد قطب عام ١٩٦٤، فقد تمّت أكبر عملية بناء للمساجد مع إحكام القبضة على المؤسّسة الدينيّة.[4] كما رفع عبد النّاصر شعار ضرب الأحزاب اليساريّة في الستّينات وطارد كتّاب اليسار. وركّز عبد النّاصر في خطابه على اتّباع الحياد الإيجابي ومحاربة الامبرياليّة والكولونياليّة.

على أنّ الممارسات التي ذكرناها، على سبيل المثال، لا تحلّ إشكاليّة الفكر القومي عند جمال عبد النّاصر مع الإسلام. ذلك أنّ الكثيرين من الكتّاب والمفكّرين يرون ممارسته من منظور محاولته تدعيم شرعيّته عن طريق الإسلام. لكن قراءتنا خطابَهُ القومي، وهي قراءة تقوم على بناء نصوص كثيرة في مراحل تاريخيّة مختلفة (من ١٩٥٢ حتّى ١٩٧٠) ستُظهر مرتكزات خطابه المستمرّة التي ما انفكّ

(*) دائرة العلوم السياسيّة في الجامعة الأميركيّة.

(١) شارل الخوري، **هكذا عاش ومات جمال عبد النّاصر**، (بيروت: دار الأدب الجديد، ١٩٧٠)، ص ٨ - ٩ و١١ - ١٢.

(٢) محمد حافظ دياب، سيّد قطب، **الخطاب والأيديولوجيا**، (بيروت: دار الطليعة، ط ٢، ١٩٨٨)، ص ١١٧ - ١١٩.

(٣) سماح إدريس، **المثقّف العربي والسلطة - بحث في روايات التجربة الناصريّة**، (بيروت: دار الآداب ١٩٩٢)، ص ٤٥.

(٤) دياب، **الخطاب والأيديولوجيا**، ص ١٢٠.

عبد النّاصر يتصوّرها في طرحه للإسلام.

هذا الطرح، على كونه مغايراً في كثير من الأحيان لطرح الكثير من الإسلاميّين، طرحٌ إسلامي اجتهادي. ذلك أنّ معيارَ إسلاميّةِ خطابٍ ما لا يقوم على تطابقه وتناغمه بالضروره مع الخطابات الإسلاميّة الأصوليّة أو غيرها. وسنثبت أنّ خطاب عبد النّاصر الإسلامي يدخل في الخطّ الإسلامي العربي الذي ابتدأه الكواكبي الرافض لمقولة التناقض بين الإسلام والقوميّة العربيّة. ويدخل عبد النّاصر، مع الأخذ بالاعتبار التمايزات بسبب تمثيله لدولة ومشروعيّتها وليس لحركة وفكرها فحسب، في فلك رشيد رضا ومحيي الدين الخطيب وشكيب أرسلان،حيث احتلّت القوميّة العربيّة موقعاً أساسيّاً في المشروع الإصلاحي والنهضوي الإسلامي. فقراءة عبد النّاصر هي كقراءة عبد الله النديم وعبد الحميد بن باديس وعلال الفاسي، تقوم على العلاقة الوثيقة بين الوطنيّة أو القوميّة من جهة وبين الإسلام من جهة ثانية؛ ولا تتنكّر لمشروعيّة وأحقيّة كلّ منهما. ويمكن القول أيضاً إنّ مفهوم القوميّة عند عبد النّاصر، كما سنتبيّن لاحقاً، هو في تناغم شبه كامل مع قراءة حسن البنّا لهذا المفهوم وعلاقته بالإسلام.[٥]

ولم ينكر عبد النّاصر طوال حياته الإسلامَ ومشروعيّتَهُ وضرورته التاريخيّة الإيمانيّة وصيرورته الحضاريّة والسياسيّة، بل وقف ضدّ التيّار الذي يتجاهل جذور الأمّة الحقيقيّة وتراثها ويضرّ بها ويحوّل المجتمع العربي ودوله إلى لقمة سائغة في أيدي الإسرائيليّين والإمبرياليّين. حتّى إنّ الكثير من المؤسسات والدول والأفراد الغربيين اعتبروا عبد النّاصر ممثّلاً للإسلام؛ ودعا الفاتيكان، مثلاً، للصلاة على روحه «لإخلاصه لعقيدته الإسلاميّة ولطهارة حياته العائليّة».[٦]

وقد حدّد جمال عبد النّاصر مشكلته مع كلٍّ من الإخوان والشيوعيّين في أنّها صراعات تتركّز على السلطة لا على قضايا عقائديّة بحتة.[٧] ذلك أنّ أزمة ١٩٥٤ تمحورت حول ثلاثة عوامل؛ أوّلها مطالبة المثقّفين بعودة الجيش إلى ثكناته؛ وثانيها عودة الحياة النيابيّة؛ وثالثها تفضيل عبد النّاصر لأهل الثقة على أهل الخبرة.

لهذا، تعامل عبد النّاصر مع الإخوان لضرب الشيوعيّين وتعامل مع الشيوعيّين لضرب الإخوان.[٨]

* * *

مرتكزات الخطاب الديني

أوّلاً: الإسلام كقوّة حضاريّة وإيمانيّة ومستودعٍ دائم للدوافع والحوافز.

كان جمال عبد النّاصر ينظر إلى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ على أنّها ثورةٌ سياسيّة يستردّ بها الشعب حقّه في حكم نفسه، وعلى أنّها ثورةٌ اجتماعيّة تتصارع فيها الطبقات الاجتماعيّة. وتتمظهر هذه الثورة في تشديدها على وجوب إزالة الأسباب الآيلة إلى زلزلةِ القيم وتخلخلِ العقائد وتصارع المواطنين فيما بينهم أفراداً وطبقات.[٩]

بدأ عبد النّاصر محاولته بإنهاء الظاهرة القُطريّة وذلك بسبب تكوّنها الوثيق الصلة بالمشروع الامبريالي لتفكيك الوطن العربي، فطرح دوائره الثلاث من منطلق جيوسياسي. لذا أصبحت الدائرة العربيّة التي تُحيط بمصر «منّا ونحنُ منها، امتزجَ تاريخُنا بتاريخها، وارتبطت مصالحُنا بمصالحها حقيقةً وفعلاً لا مجرّد كلام». وأمّا الدائرة الإفريقيّة فلا يمكن تجاهلها ولا يمكن أن نقول أنْ «لا شأن لنا أن نكون فيها».[١٠] كما أنّ هناك عالماً إسلاميّاً تجمعنا به روابطُ لا تقرّ بها العقيدة الدينيّة فحسب، وإنّما تشدّها حقائقُ التاريخ كذلك.[١١]

إنّ هذه الدوائر الثلاث تُمكّن الأمّةَ من اللحاق بركب البشريّة والتقدُّم: «كانت عقولنا تحاول أن تلحق بقافلة البشريّة المتقدّمة التي تخلّفنا عنها خمسةَ قرون أو يزيد، وكان الشوط مُضنياً والسياقُ مروّعاً مخيفاً».[١٢] وهكذا حاول الرئيس جمال عبد النّاصر الانتقال من موقع الدفاع عن النفس إلى مرحلة الهجوم، فأنشأ التحالفات والمواقع التي تمكّن الأمّة من النهوض. وقد طالب، مثلاً، باستعمال سلاح البترول الذي يعتبر عصب الحضارة الماديّة والذي بدونه تتحوّل كلّ أدوات هذه الحضارة إلى قطعٍ من حديد.[١٣]

تقول إحدى الكاتبات إنّ «الخطاب النّاصري يفصل العلاقةَ بالله

(٥) انظر في بعض الطروحات حول إشكاليات الفكر الإسلامي التي نحاول معالجتها هنا مقالةَ محمد شومان، «ملاحظات أوّلية حول إشكاليات الإسلام والناصريّة»، منبر الحوار، السنة السابعة، العددان ٢٣ و٢٤، شتاء وربيع ١٩٩٢، ص ٣٠٤ - ٣١٥.

(٦) الخوري، هكذا عاش، ص ٦٣.

(٧) وجيه مزبودي، كلمات خالدة لجمال عبد النّاصر، (بيروت: شركة التوزيع الوطنيّة، لا تاريخ)، ص ٥٢.

(٨) راجع إدريس، المثقّف العربي والسلطة، ص ٣١ - ٣٣، وص ٣٧.

(٩) عبد النّاصر، فلسفة الثورة، (بيروت: مكتبة العرفان، لا تاريخ)، ص ٣٩ - ٤٠.

(١٠) المصدر السابق، ص ٨٣.

(١١) المصدر نفسه، ص ٨٣ - ٨٤.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٦٧.

(١٣) المصدر نفسه، ص ١٠٤.

عن العلاقةِ بدين معينّ وبتقاليده الخاصّة. فلئن كانت الأمّة العربيّة، طبيعيّاً، «تعتزّ بتراثها الإسلامي»، ولئن كان الإسلام هو «آخر رسالات السماء الإلهيّة» في أرض النبوّة هذه... فإنّ الخطاب القومي النّاصري لا يشير إلى «قيم» و«تعليم إسلامي» وأنظمة إسلاميّة أخلاقيّة وقانونيّة واجتماعيّة صالحة للأمّة العربيّة. وإنّما على العكس من ذلك؛ فإنّ «روح الإسلام حافزٌ يدفع إلى اقتحام المستقبل»، ويكتفي الخطاب النّاصري بالإشارة إلى تلاؤم «روح الإسلام» مع أهداف الأمّة.[14] وتضيف الكاتبة أنّ الأمّة العربيّة «ليست أيضاً أمّةَ جوهرٍ، فتتّجه نحو جوهرها السامي اللازمني طامحة إلى إحيائه أو إبطال ارتهانه. فالعلاقة بالماضي تُبنى على أسباب التفاوت النسبي بين العرب والأمم المتقدّمة، وليس على التمايز المطلق للأمّة العربيّة...»[15]

غير أن نصوص الخطاب النّاصري، كما سنُبيّن، تُشير بالفعل إلى «قيم إسلاميّة» وإلى «تعليم إسلامي». كما أنّ «روح الإسلام» ليس حافزاً فحسب بل هو معيارُ العمل، لأنّه عند تعطّل النصوص يجب النظر إلى «روح الإسلام» أو مقاصد الشريعة. كما أنّ العلاقة بالماضي - وهي علاقة الأمّة بالإسلام - تميّز تلك الأمّة عن غيرها من الأمم.

يحدّد جمال عبد الناصر في حديث له عام ٥٣ في مؤتمر عربي - إسلامي تميّز هذه الأمّة عن غيرهابالإيمان، فيقول إنّ المسلمين آمنوا بالله واليوم الآخر وآمنوا أنّ الله ما خلقهم إلّا لأداء رسالة عرضها على السموات والأرض والجبال فأبينَ أن يحمِلْنَها، وأشفقْن منها؛ إنّها رسالة الحرّيّة والعدالة والعزّة والكرامة، ورسالة السلام والسعادة في الدنيا والآخرة.[16] هنا يجعل جمال عبد النّاصر الإيمان مناطَ التكليف بالرسالة التي تقوم على قيم الحرّيّة والعدالة والعزّة والكرامة والسعادة. وأمّا عندما فقدَ المسلمون إيمانهم ومناطَ تكليفهم فقد اختلطت عليهم عقيدتهم: «فاعتبروا دينهم عبارات تُؤدّى وفرائضَ تُقضى، ونسوا أنّ الإسلام صبرٌ وجهاد، وأنّه ما فُرضت سائرُ العبادات إلّا لإعدادِ المسلمِ المؤمن لخوضِ المعارك دفاعاً عن دينه ووطنه وحرّيّته وعزّته. ويا ليتهم حافظوا على هذا التراث العظيم، والدين القويم. فقد استذلّتهم الشهواتُ، واشتروا الضلالة بالهدى والحياةَ الدنيا بالآخرة، واستحوذ عليهم الشيطانُ، ألَا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون».[17]

فالإيمان في خطاب الرئيس عبد النّاصر هو محور العمل، وأمّا الشعائر فتأتي في مرتبة ثانية. إنّ «روح الإسلام» لا يتمثّل في إقامة بعض الشعائر، بل يتمثّل في الجهاد والقدرة على تحقيق الأهداف العليا والآمال، وفي «أن نضع عقيدتنا التي ورثناها عن آبائنا الذين قاتلوا وعن الأجداد الذين قاتلوا موضع العمل وموضع التنفيذ...».[18]

لذا فالجهاد في خطاب الرئيس لا يستقيم إلّا بربطه بالعقيدة التي تسوّغه وتُحوّله من عَرَض دنيويّ زائل إلى مستودعٍ للقيم ولنضالِ الأمّة. فما قام العرب إلّا عندما آمنوا فهبّوا «من غفوتهم وصحوا من كبوتهم، تدفعهم هذه العقيدةُ الفيّاضة، وهذا الإيمان القويُّ الجبّار، مجاهدين مناضلين في سبيل الله، داعين إلى الله، مؤمنين بأنّ الله كتب على نفسه ليغلبنّ ورسلَه، إنّه لقويّ عزيز...». ويستند عبد النّاصر على هذا بآيتين: ﴿يا أيّها الناسُ هل أدُلُّكُم على تجارةٍ تُنجيكم...﴾؛ و﴿إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفُسَهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة، يُقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعداً عليه حقّاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله﴾.[19]

وهكذا، يُدخل عبد النّاصر مفهوم الجهاد إلى دائرة الإيمان ويُدخل النصر إلى دائرة الوعد الإلهي الذي لا بدّ من وجود شروط لتحقيقه: «وهكذا أذهل المسلمون العالم بانتصاراتهم ورفعوا راية الإسلام خفّاقةً في العالمين، تروي قصص البطولة والجهاد، والحرص على الموت والاستشهاد في سبيل الله، فمكّن الله لهم في الأرض واستخلفهم فيها».[20] ويُدخل جمال عبد النّاصر هذه العقيدة في فكره العسكري فيخطب في جنوده قائلاً: «إن مفيش حدّ منّنا حيْموت ناقصْ عمر وكلّ مخلوق له أجل محدّد، وكلّنا مؤمنين بالله وبهذه الحقيقة. ومن ناحية أخرى، فلا بدّ أن يتعمّق هذا الإيمان في قلب الجنود. وعاوِزْ كلّ عسكري يكون مؤمن بالدين وبالمبادئ والقيم. ولازم التوجيه المعنوي يعمّق هذه المعاني ويجعل عامل الإيمان بالله أساس توعية الجندي».[21] وحتّى قبل تولّيه القيادة في مصر، كتب إلى صديقه بعد تأليف الجبهة الوطنيّة قائلاً: «قال

(١٤) مارلين نصر، التصوّر القومي العربي في فكر جمال عبد النّاصر ١٩٥٢ - ١٩٧٠، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، ١٩٨١)، ص ٣٩٨.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٤٠٠.

(١٦) جمال عبد النّاصر، قال الرئيس، (مجموعة خطب وأحاديث الرئيس جمال عبد النّاصر)، (القاهرة: دار الهلال، لا تاريخ)، ص ٦٤ - ٦٥.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٦٥.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٣٢٢.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٦٥.

(٢٠) المصدر نفسه.

(٢١) عبد النّاصر، كلمات خالدة، ص ٦٥ - ٦٦.

تعالى: ﴿وإعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوّة﴾... فأين تلك القوّة التي نستعدّ بها لهم؟»[٢٢].

أمّا الجهاد فيجب أن يُوجَّه إلى الخارج لا إلى الداخل، إلى مقاتلة الاستعمار، وينبغي عدم تحويل الجهاد إلى تعصُّب. ولقد فرَّق جمال عبد النّاصر في الميثاق بين التديُّن والتعصُّب فقال: «إنَّ الإقتناع الحرّ هو القاعدة الصُّلْبة للإيمان. والإيمان بغير الحرّيّة هو التعصُّب. والتعصُّب هو الحاضر الذي يصدّ كلَّ فكر جديد، ويترك أصحابه بمنأى عن التطوُّر المتلاحم الذي تدفعه جهودُ البشر في كلِّ مكان». لهذا يجب ـ حسب عبد الناصر ـ النَّظر إلى الفتح الإسلامي في ضوء إبراز هذه الحقيقة التي «أنار معالمها ووضع لها ثوباً جديداً من الفكر والوجدان...»[٢٣].

بهذه المقولة يُخرج عبد الناصر الإسلام من الحيِّز الضيِّق الذي حدَّده البعضُ لتطبيق الشريعة فنظروا إلى كلِّ عمل لا من خلال تناغمه العامّ مع روح الإسلام بل من منظار شريعة ضيِّقة وُضِعَتْ في عصور غابرة. ذلك أنَّ عبد الناصر قد كان ينظر إلى التطوُّر الصحيح بوصفه امتداداً للتاريخ لا انقطاعاً عنه: «بل إنَّ الثورة ـ وهي أسرع درجات التطوُّر ـ ليست في حقيقة أمرها إلاَّ محاولة تكثيف للّحاقِ بحركة التاريخ والانسجام معها والسير بها نحو التقدُّم.»[٢٤]

وبهذه المقولة يفصل عبد النّاصر الإسلامَ عن التاريخ ويجعل من الأوّل مصدرَ الطاقات الروحيّة والمُثل العليا. ذلك أنَّ التاريخ تصنعه الشعوبُ التي تزوِّدها طاقاتُها الروحيّة بآمالها الكبرى التي تشكِّل أعظمَ القوى الدافعة، وتسلِّحها بدروع الشجاعة والصبر التي نواجه بها ونقهر بها مختلف المصاعب والعقبات. فالتقدُّم المادّي، بحدِّ ذاته ودون ارتباطه بمُثُل عليا، لا قيمة له؛ إذْ إنَّ «الحوافز الروحيّة والمعنويّة هي وحدها القادرة على منح هذا التقدُّم أنبل المثل العليا وأشرفَ الغايات والمقاصد.»[٢٥] وفي إطار التاريخ الإسلامي، وعلى هدي النبي محمَّد، قام الشعب المصري بأعظم الأدوار دفاعاً عن الحضارة الإنسانيّة.[٢٦]

وهذه الحوافز الروحيّة والمعنويّة هي التي دفعت بالرئيس جمال عبد النّاصر إلى تحويل الحجّ من «تذكرة إلى دخول الجنّة» أو من «محاولةٍ ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة» إلى قوّة سياسيّة ضخمة شبيهة بمؤتمر سياسي دوري أو ببرلمان إسلامي عالميّ يضع الخطوط العريضة لسياسة الأمّة الإسلاميّة.[٢٧]

وقد أكَّد جمال عبد النّاصر مراراً وتكراراً على إيمانه بالإسلام، لا كقوّة إيمانيّة فحسب، بل كمرتكز أساسي في فكره العامّ وفي فكره الاستراتيجي. فالدائرة الثالثة (أو الدائرة الإسلاميّة) تقوم على العقيدة وتقوم على المصلحة الجيوسياسيّة كذلك. وكان لا يرى ضرورة الفصل بينهما. وفي حديث له عام ٦٩ يقول عبد النّاصر: «نحن نرسل بعثات إلى الدول الإسلاميّة، وأنت تعرف كيف ينظر المسلمون إلى الدول الإسلاميّة وأنت تعرف كيف ينظر المسلمون إلى القدس كمدينة مقدَّسة».[٢٨]

فالطاقات الروحيّة والمعنويّة القائمة على المُثُل العليا المنبثقة من أديانها السماويّة ومن تراثها الحضاري قادرةٌ على صُنع المعجزات لأنَّ تلك الطاقات مصدرُ وحيٍ وإلهام وطمأنينة وأمان. يقول الرئيس عبد النّاصر «إنَّ الأمم في أوقات الأزمات تحسّ بالأمن إذ تفتِّشُ في تاريخها وتجد فيه أسباباً إضافيّة تضمّها إلى إمكانياتها في مواجهة ما يحيط بها من مخاطر، بحيث يكون لها من ذلك طمأنينةٌ نفسيّة وروحيّة تهيب بها إلى أنَّها قادرة في الحاضر، كما قدرت في الماضي، وأنَّها واجهت الظلم من قبل ودفعته بالحقّ، وواجهت الظلام من قبل وبدَّدته بشعلةٍ حضاريّة؛ وتعرَّضت للرياح الهوجاء كثيراً ولكن شعلتها لم تنطفئ ولم تنضب على طول العصور. وليس أحقّ من شعبنا بهذه الطمأنينة التي يستطيع التاريخ أن يعطيها للحياة المعاصرة؛ ذلك أنَّ شعبنا حين يتطلَّع إلى الوراء يحسُّ مخلصاً وصادقاً أنَّه قادرٌ على الاجتياز والتخطِّي وقادر على الاختيار والتحدِّي».[٢٩]

وبهذا يشكّل الماضي قوّةً للحاضر والمستقبل لا انقطاعاً عنهما. ففي الماضي تاريخُ الأمّة وقوتُها، لا ضعفها كما يقول الإسلاميُّون؛ وفي ماضيها مبادئها لا انحرافاتها، كما يقول الإسلاميُّون؛ وفي ماضيها أيضاً طمأنينتها وأمانها لا تخبُّطها وعدم استقرارها؛ وفي ماضيها نور يهتدى به لا ظلام يُفرُّ منه.

---

(٢٢) عبد النّاصر، **فلسفة الثورة**، ص ٢٦.

(٢٣) أحمد صدقي الدجاني، **عبد النّاصر والثورة العربيّة**، (بيروت: دار الوحدة، ١٩٧٣)، ص ١٢٦؛ وانظر أيضاً، **قال الرئيس**، ص ٦٧.

(٢٤) **وثائق جمال عبد الناصر (١٩٦٩ ـ ١٩٧٠)**، (القاهرة: مركز الدراسات السياسيّة والاستراتيجيّة بالأهرام، لا تاريخ)، ص ٦٩ ـ ٧٠، وص ٩٧.

(٢٥) جمال عبد النّاصر، **مقتطفات من أقوال الرئيس عبد النّاصر**، (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٠)، ص ١١٢؛ وانظر ص ١١١ كذلك.

(٢٦) الدجاني، **عبد الناصر والثورة العربيّة**، ص ١٢٦.

(٢٧) عبد الناصر، **فلسفة الثورة**، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

(٢٨) **وثائق عبد النّاصر**، ص ٦٩ ـ ٧٠؛ وانظر عبد النّاصر، **١٠٠٠ سؤال وأجوبة القائد المعلِّم جمال عبد النّاصر**، ص ١٤.

(٢٩) **وثائق جمال عبد النّاصر (١٩٦٩ ـ ١٩٧٠)**، ص ٦٩ ـ ٧٠؛ وانظر عبد النّاصر، **مقتطفات**، ص ١١٣.

فالماضي لا يشكّل تغييباً للأمّة الحقّة بل يشكّل حضورها الحضاري ومساهمتها في المجرى العالمي للحضارة الإنسانيّة الذي «يشهد لهذه الأمّة العربيّة كلّها على إسهامها الموفور والمتنوّر. ذلك التاريخ الطويل كلّه وما حفل به تهون إزاءه أزمةٌ عارضة صنعتها المطامعُ التي تتصوّر نفسها غلّابة... فالتاريخ الطويل يشير إلى أنّ الإيمان قد كانت له في النهاية الكلمةُ العليا».[٣٠] ولا يمكن في رأي جمال عبد النّاصر تغييب أو إهمال هذه الحضارة التي تشكّل خصائص هذه الأمّة ومقوماتها وتمايزها عن غيرها من الأمم؛ فهي منبع انبعاث الأديان. ويقابل الأمّة العربيّة بالصهيونيّة، فيعتبر أنّ الصهيونيّة دعوةٌ غريبة نشأت في أوروبّا في نهاية القرن التاسع عشر حين تحوّل الدين اليهودي إلى حركة قوميّة مغتصبة تطالب بجزء من وطن الأمّة العربيّة في فلسطين؛ بينما تتميّز الأمّة العربيّة بقيم حضاريّة. لذا فإنّ ثورة هذه الأمّة هي الحركة التاريخيّة لجماهير الأمّة العربيّة بهدف القفز، عبر التخلّف، إلى التقدّم السياسي والاجتماعي والثقافي، مستندةً إلى القيم الحضاريّة للأمّة العربيّة.[٣١]

إنّ ما يميّز الأمّة العربيّة هو حضارتها الإسلاميّة. وهكذا يخطب عبد النّاصر في مجلس الأمّة في مناسبة إعلان الوحدة بين مصر وسوريا في ٥ فبراير عام ١٩٥٨ فيقول:

> اتّحدت المنطقة بيقين النبوّات حين بدأت رسالاتُ السماء تنزل إلى الأرض لتهدي الناس. واتّحدت المنطقة بسلطان العقيدة حين اندفعت راياتُ الإسلام تحمل رسالةَ السماء الجديدة وتؤكّد ما سبقها من رسالات، وتقولُ كلمة الله الأخيرة في دعوة عباده إلى الحقّ. واتّحدت المنطقة بتفاعل عناصر مختلفة في أمّة عربيّة واحدة. واتّحدت المنطقة باللّغة يوم جَرَت العربيّة وحدها على كلّ لسان... واتّحدت المنطقة تحت دافع السلامة المشتركة يوم واجهت استعمار أوروبا الذي يتقدّم إليها محاولاً أن يرفع الصليبَ ليسترَ مطامعه وراء قناع المسيحيّة. وكان معنى الوحدة قاطعاً في دلالته، حين اشتركت المسيحيّةُ في الشرق العربي في مقاومة الصليبيّين جنباً إلى جنب مع جحافل الإسلام حتّى النصر.[٣٢]

وهكذا فإنّ مفهوم الوحدة ـ وهو من أهمّ مفاهيم الفكر السياسي الإسلامي ـ قد لعب الدور الأوّل في فكر جمال عبد النّاصر. وقد رأى أنّ توحيد هذه الأمّة العربيّة ينبع من حضارة مميّزة لمسلميه ولمسيحيّيه. فالإسلام هو استمرار للأديان السابقة وكمال لها لا انقطاعٌ عنها. فالحضارة الإسلاميّة تشتمل على المسلمين والمسيحيّين، ولا يشكّلُ توكيد أهميّة الإسلام السياسي نفيَ المسيحيّة، بل يؤدّي ذاك، في رأي جمال عبد النّاصر، إلى تواصل الإسلام مع المسيحيّة في الشرق؛ ذلك أنّ الإسلام وهذه المسيحيّة مرتبطان ارتباطاً تلازميّاً.

لذا، لا يرى جمال عبد النّاصر أنّ التشديد على جوهر الإسلام ينفي جوهر الأديان الأخرى أو يحلّ محلّها، وإنّما يحوّلُ الإسلامَ إلى المعيار الفاصل بين الأصالة والزيف وبين النصر النهائي والهزيمة الحتميّة. ولهذا يرى أنّه بالرغم من توقّف بنية القوّة على الوسائل الماديّة، إلاّ أنّها ترتبط في النهاية بالإيمان؛ فيقول: «إنّنا نقبل بمشيئة الله فيما نحن فيه من الآلام، ولكنّنا نثق ثقة كاملة في مشيئة العدل الإلهي، ونؤمن إيماناً لا يتزعزع بأنّنا سنكون يد هذه المشيئة حينما تجيء اللّحظة المناسبة. وسوف تجيء اللّحظة التي نريدها، قائلين بيقين الصادقين: ﴿وما رمَيتَ إذ رمَيتَ، ولكنّ الله رمى﴾.[٣٣]

إنّ الوحدة القائمة على الإيمان هي المبدأ الفكري الديني السياسي الإسلامي الأوّل الذي شغل الحيّز الكبير في فكر جمال عبد النّاصر. فيقول في احتفال ٨ مارس سنة ١٩٥٨ في قصر الضيافة بدمشق بهدف توقيع اتفاق الاتحاد بين الجمهوريّة العربيّة المتّحدة والمملكة المتوكّليّة اليمنيّة: «بسم الله، وُقّع الاتفاق للاتحاد العربي اليوم بين المملكة اليمنيّة والجمهوريّة العربيّة المتّحدة لإقامة الدولة العربيّة المتّحدة... إنّ هذا الاتّحاد إنّما يعبّر عن آمال الأمّة العربيّة، وهو أيضاً تعبير عن الدعوة التي تنصّ على أن الاتّحاد قوّة؛ هذا الاتّحاد الذي نادت به الكتب السماويّة وعبّر عنه الإسلام...».[٣٤]

وإذا كان الإيمان والوحدة من مميّزات الفكر الإسلامي في الخطاب الديني عند عبد النّاصر فإنّ مفاهيم أخرى تشكّل الفكر السياسي الديني الاجتماعي عنده، وهي العدل والمساواة والاشتراكيّة.

ويقول جمال عبد النّاصر في خطاب ألقاه في المقرّ الرئيسي لهيئة التحرير في ٢٦ أغسطس ١٩٥٣:

> إخواني في العروبة والإسلام. السلام عليكم ورحمة الله...
> منذ أربعة عشر قرناً، أشرقت السمواتُ والأرضُ بنور الله عزّ وجلّ، وهبطت الرسالةُ المحمّديّة، فأضاءت الكونَ بنور الهداية والتوحيد، وفاضت على البشريّة نعمةُ الإسلام، وحرّرت

(٣٠) وثائق جمال عبد النّاصر، ص ٩٦.
(٣١) عبد النّاصر، فلسفة الثورة، ص ١٠٤؛ و وثائق جمال عبد النّاصر، ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠، ص ٢٧٦؛ وعبد النّاصر، مقتطفات، ص ٣٠.
(٣٢) عبد النّاصر، قال الرئيس، ص ٢٩٤.
(٣٣) وثائق جمال عبد النّاصر، ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠، ص ٣٣٧؛ وانظر أيضاً، ص ٦٩ ـ ٧٠ وص ١٥٩.
(٣٤) قال الرئيس، ص ٢٣٦.

النفوسَ من الذلّ والعبوديّة، ومنحت الإنسانيّةَ الحريّةَ والعدالةَ والمساواةَ، ووطّدت بذلك دعائمَ السِّلْم نظاماً للمجتمع العالمي الذي طالما نادتْ به الثوراتُ في جميع بقاع العالم حتى اليوم. ﴿يا أيُّها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

وهكذا جاء الإسلام ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى.[٣٥]

ونظر عبد النّاصر إلى هذه المبادئ الثلاثة على أنّها الاشتراكيّة، ولم يجد أيَّ غضاضة في وصف الإسلام بالاشتراكيّة لأنّه لم يجد ما يحولُ دون ذلك. فالإسلام في نظره «حقّق أوّل تجربة اشتراكيّة في العالم». وبهذا تكون الاشتراكيّة شريعةَ العدل وشريعةَ الله؛ فالإسلام هو دين العدالة والمساواة والحريّة.

هذه باختصار مقوّماتُ الأمّة الإسلاميّة وخصائصها التي تميّزها عن غيرها؛ فهي الحاملةُ لرسالة الوحدة، المحقّقةُ لمشيئة الله في العدل الإلهي القائم على الحريّة والمساواة والعدل الاجتماعي. ذلك أنّ الأمّة العربيّة الإسلاميّة ليست كغيرها من الأمم قائمة على مفهوم لغويّ أو تاريخيّ، بالرغم من أنّ اللغة والتاريخ يدخلان في مكوّنات مفهوم الأمّة في الخطاب الديني عند جمال عبد النّاصر.

* * *

ثانياً: الإسلام والعروبة

لم تبرز في الفكر الديني والقومي عند جمال عبد النّاصر إشكاليّةُ الدين والعروبة. ومن غير الصحيح القول، كما برهنّا سابقاً، «إنّ الأمّة العربيّة في الخطاب النّاصري لم تعد أمّةً متمحورة حول الله وموحّدة بأنظمة الشريعة»؛ ذلك أنّ الأمّة العربيّة ـ حسب عبد النّاصر ـ «مؤمنة بالله وبنفسها»، وإرادة الله، في المقابل، تلهمها وتوجّه خطاها. وليس صحيحاً القول «إنّ الله (بعد عام ١٩٦٧) يريد (لهذه الأمّة) النصر لكنّه لا يفرض عليها قطّ أهدافها ولا جوهر أخلاقها ولا نماذج تنظيمها السياسي والاجتماعي.»[٣٦] فالواقع أنّ عبد النّاصر قد لا يرى في الشريعة تنظيماتٍ محدّدة من حيث الشكل وتداول السلطة، مؤثراً التجربة المباشرة والبرجماتيّة (كما سيجيء لاحقاً)؛ بل إنّه أصرّ دائماً على أنّ أهداف الأمّة واضحة ومحدّدة، وأنّ إرادة الإنسان في النهاية لا تشكّل أكثرَ من جزء موضوعي في المسيرة الحضاريّة للإنسان. وكذلك، وكما تقدّم سابقاً، فإنّ عبد النّاصر لم ينفِ قدسيّةَ الأمّة أو ماضيَها. وإذا كان عبد النّاصر لم يطمح إلى العودة إلى عصر الإسلام الذهبي أو عصور الخلفاء الراشدين أو الدول الخليفيّة، وإذا كان قد رأى أنّ «العبوديّة الاستبداديّة والظلاميّة للمماليك والعثمانيّين وهجمات الغرب المتعاقبة... هي الأسباب الرئيسيّة لتأخّر الأمّة»،[٣٨] فإنّ ذلك لا يعني أنّه لَفَظَ الإسلام كمكوّن أساسي من مكوّنات الأمّة العربيّة. بل إنّ عبد النّاصر قد نظر إلى الأمّة باعتبار ما سيكون من وحدة وتحقيق للرسالة الإلهيّة. وكلّ هذا ليس من خلال رفض محورية الرسالة، وإنّما هو إعادةٌ لصياغتها في ظلّ الظروف الراهنة. كذلك، فإنّ تأكيدَهُ على وجود كيان للعرب يعود إلى آلاف السنين، وعلى تشكّلِ الوحدةِ على عدّة أسس دينيّة ولغويّة وعرقيّة[٣٩]، لا يُنكر مركزيّة الرسالة الإسلاميّة في إخراج العروبة من حيِّز الممكن إلى حيِّز الواقع وفي جعلها أمّة عالميّة تشتمل على جميع العناصر والأجناس. ففي حين كانت العروبة محصورة بالعرب أصبحت العروبة حضارةً تستوعب الشعوب الأخرى.

وفي حديث له من على منبر الأمم المتحدة عام ١٩٦٠ يقول: «إنّنا نؤمن بأمّة عربيّة واحدة. لقد كانت للأمّة العربيّة دائماً وحدة اللغة.. ووحدة اللغة هي وحدة الفكر. وكان للأمّة العربيّة وحدة التاريخ.. ووحدة التاريخ هي وحدة الضمير. ولسنا نرى أساساً قوميّاً أمتن من هذا الأساس».[٤٠]

ووحدة اللغة والفكر والوجدان تمثّلت استراتيجيّاً في فكر عبد النّاصر بالدائرة العربيّة التي «امتزجت معنا بالتاريخ، وعانينا معها نفسَ المحن، وعشنا نفس الأزمات، وحين أوقفنا سنابك الغزاة كانوا [أي العرب] معنا تحت نفس السنابك.» ويضيف: «كذلك، فإنّ هذه الدائرة معنا أيضاً بالدين، فنقلت مراكز الإشعاع الديني، في حدود عواصمها، من مكّة إلى الكوفة، ثمّ إلى القاهرة، ثمّ جمعها الجوارُ في إطار ربطته كلّ هذه العوامل التاريخيّة والماديّة والروحيّة».[٤١] وبمعنى آخر فإنّ عبد النّاصر لا يرى أيَّ تناقض بين الإسلام والعروبة، بل إنّ العروبة تشكّل جوهر الإسلام وحصنه الحصين. لذا، «ليس عبثاً أنّ التراث الإسلامي الذي أغار عليه المغولُ الذين اكتسحوا عواصم الإسلام القديمة تراجع إلى مصر وأوى إليها فحمتْهُ مصرُ وأنقذتْهُ عندما ردّت غزواتِ المغول على أعقابهم في عين جالوت».[٤٢]

(٣٥) المصدر السابق، ص ٦٤.

(٣٦) الدجاني، عبد الناصر والثورة العربيّة، ص ١٢٧، ١٣٠.

(٣٧) نصر، التصوُّر القومي، ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

(٣٨) المصدر السابق، ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٣٩٩.

(٤٠) الدجاني، عبد الناصر والثورة العربيّة، ص ١١٩.

(٤١) عبد النّاصر، فلسفة الثورة، ص ٨٦ ـ ٨٧.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٨٤.

وفي الخطاب النّاصري تنهار السدودُ بين الإسلام والقوميّة وتتداخل القيم الدينيّة والقوميّة والاستراتيجيّة لتشكّل كُلاً لا يتجزّأ على مستوى الوجدان والشعور. فيقول جمال عبد النّاصر: إنّ «القوميّة العربيّة تعبّر عن الشعور الحقيقي الذي يشعر به كلّ مواطن عربي، تعبّر عمّا في أعماق نفس كلّ مواطن عربي. القوميّة ضرورة دفاعيّة وتضامنٌ عربيّ، وضرورة استراتيجيّة ومصلحة مشتركة، هي الدفاع عن كلّ عربي في كلّ وطن عربي، والدفاع عن كلّ وطن عربي في كلّ البلاد. . . ».[٤٣]

لذا تغدو المقولة التي تقول «برفض الخطاب النّاصري النظرةَ الأحاديّة لغرب مغاير وسلبي تماماً» والتي تقول «إنّ الخطاب النّاصري يشجب تصلّبَ الاستعمار الغربي، العدوّ الأساسي للأمّة وللحركة القوميّة وللوحدة العربيّة، والسند الأساسي لإسرائيل وللرجعيّة العربيّة»،[٤٤] غير دقيقة تماماً. ذلك أنّ عبد النّاصر يقول بوجوب إيمان «العرب والمسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها، بأنّهم يصارعون عدوّاً واحداً هو الاستعمار، وعليهم أن يتجمّعوا تحت راية الاتحاد والجهاد، وأن تؤمن كلّ أمّة بأنّ بقاءها وعزّها ببقاء وعزّة المجموع. كما يجب أن يؤمن العرب والمسلمون. . . بأنّ عهداً جديداً يجب أن يبدأ، عهداً قوامه الإيمان بالله، وعماده العمل في سبيل الله».[٤٥]

فمعركة العرب والمسلمين هي معركة ضدّ العنصريّة وضدّ الصهيونيّة وضدّ الاستعمار لأسباب دينيّة وإيمانيّة وسياسيّة واجتماعيّة. لذا فإنّ ناس الأمّة «سيسيرون في الكفاح المقدّس، مضحّين بدمائهم وأرواحهم وأجسادهم من أجل الحصول على أهداف عالية ضحّى من أجلها إخوة سبقوهم في الجهاد».[٤٦] وهكذا فإنّ الحرب في فكر عبد النّاصر لا تكون إلاّ تطبيقاً لقوله عزّ وجلّ ﴿يا أيّها الذين آمنوا كُتب عليكم القتال وهو كرهٌ لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾. وهذا واجب تضعه الأمّة على نفسها ويضعه التاريخ عليها، وهو قدرها.[٤٧]

رؤية عبد النّاصر لموقع الأمّة العربيّة من الإسلام تتطابق مع رؤية حسن البنّا.

إنّ رؤية عبد النّاصر لموقع الأمّة العربيّة من الإسلام تتطابق مع رؤية حسن البنّا. فالبنّا يرى أنّ القوميّة مبدأ يربط أفراد الأمّة، وهي جماعة من البشر تشدّ بعضهم إلى بعض علائقُ اللغة والدين والتاريخ. وقد دعا البنّا إلى قبول القوميّة الإيجابيّة، أي «قوميّة المجد وقوميّة العمل والجهاد». بل ذهب البنّا إلى أبعد من ذلك فمجّد الأمّة العربيّة لأنّ العرب «هم أمّة الإسلام الأولى وشعبُه المميّز» وهم «عصبةُ الإسلام وحرّاسُهُ».[٤٨] وربط زوالَ سلطان العرب السياسي بزوال الدولة الإسلاميّة؛ فانتقال السلطة والرياسة من العرب إلى غيرهم من فرس وديلم ومماليك وأتراك ممّن لم يتذوّقوا حقيقة الإسلام الصحيح قد أدّى - حسب البنّا - إلى انهيار الدولة الإسلاميّة الحقّة.[٤٩] وكانت للعروبة في فكر الإخوان المسلمين المكانةُ البارزة لأنّ العرب، كما يقول البنّا، إذ ذَلّوا «ذَلّ الإسلام، ولن ينهض الإسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب ونهضتها، ولأنّ كلّ أرض من الوطن العربي نعتبرها من صميم أرضنا ومن لباب وطننا».[٥٠]

بل إنّ البنّا يرى جاهليّة العرب جاهليّة «كفاح ونضال» و«هي بيئة ميّزها الله عن غيرها تمييزاً عجيباً إذ جعلها أعدل بلاد الأرض». ويرى أنّها «كوّنت العرب الذين بعث فيهم رسول الله تكويناً رائعاً. . . إنّ المجتمع الذي نشأ فيه العرب هو أفضل المجتمعات، لهذا اختير رسول الله واختير هذا المجتمع».[٥١]

ولم يرَ البنّا مناصاً من إعطاء الأمّة العربيّة دوراً في نشر رسالة الإسلام، ورأى أنّ العروبة جزء من الإسلام ومن الهويّة الإسلاميّة. كما أنّ وحدة العرب «هي أعدل وأنجز وأوضح قضيّة في التاريخ. فمن البديهيات التي لا تقبل الجدل أنّ العرب أمّة واحدة. إنّ هذا التعبير يساوي في أحقّيته ووضوحه واستقراره في النفوس والأذهان قول القائلين «السماء فوقنا والأرض تحتنا»؛ فقد اصطلحت

(٤٣) مقتطفات، ص ٣٤ - ٣٥.
(٤٤) نصر، التصوّر القومي، ص ٤٠٠.
(٤٥) قال الرئيس، ص ٦٧.
(٤٦) مقتطفات، ص ١١٣ - ١١٤؛ وانظر كلمات خالدة، ص ٣٠.
(٤٧) كلمات خالدة، ص ٧٣؛ ووثائق جمال عبد النّاصر، ١٩٦٩ - ١٩٧٠، ص ١٠٤.
(٤٨) إبراهيم البيومي غانم، مشكلة الهويّة في الخطاب السياسي عند حسن البنّا، منبر الحوار، (مصدر مذكور)، ص ٤٦.
(٤٩) مختار عزيز، العروبة والإسلام، (مالطا: دار اقرأ، ١٩٨٨)، ص ٥٤؛ والبيومي غانم، مشكلة الهويّة، ص ٥١ - ٥٢.
(٥٠) عزيز، العروبة والإسلام، ص ٥٣.
(٥١) البيومي غانم، مشكلة الهويّة، ص ٥١ - ٥٢.

على تكوين هذه الوحدة العربيّة وتدعيمها كلُّ العوامل الروحيّة واللغويّة والجغرافيّة والتاريخيّة والمصلحيّة».[٥٢]

لذا يطالب البنّا بتعزيز الصلة بين البلاد العربيّة وجاراتها الإسلاميّة غير العربية، لأنّها تعزّز الوحدة العربيّة: «فهناك أقطار ليست عربيّة ولكنّها تجاور بلاد العرب وتجمعها بها جامعة المصلحة والجوار من جانب والعقيدة الإسلاميّة والذكريات التاريخيّة من جانب آخر كالأفغان وتركيا وإيران وغيرها».[٥٣]

وأمّا عبد النّاصر فيقول، فيما يبدو مماثلاً لأقوال البنّا، بوحدة الأمّة، وبجعل مفهوم الوحدة العربيّة أحد المفاهيم المركزيّة في فكره السياسي الديني والقومي ـ تلك المفاهيم التي يجب وضعها في خدمة تحقيق وحدة إسلاميّة شاملة. والواقع أنّ عبد النّاصر يرى أنّ إيمان العرب بالقوميّة قد سبق ثورة مصر بزمن طويل: فلقد حاول العرب قبل الثورة عدّة محاولات ولم تكن ثورتنا إلاّ قوّة دافعة للفكرة القديمة نفسها. فالأمّة العربيّة لم تعرف السدود والحدود بين أبنائها، كما كانت تيّارات التاريخ التي تهبّ عليها واحدة. وكانت مساهمتها الإيجابيّة في التأثير على هذا التاريخ مشتركة.[٥٤]

وتصوّر جمال عبد النّاصر أنّ المسّ بالإسلام يعني المسّ بالعرب: «أُصيبَ الإسلام بأكبر ضربة في صميمه، وهي تفرُّقُ المسلمين شِيَعاً وأحزاباً، فبدأت كتلة الإسلام والعرب تتفكّك، وقوّتها تتحطّم، وما بينها من روابط يتزعزع، فتسرّب الضعف إليها، وتألّبت الدول عليها، وتآمرت عليها قوى الشرّ...».[٥٥] وهكذا، يرسم جمال عبد النّاصر ـ أسوةً بحسن البنّا ـ علاقة عضويّةً بين الإسلام والعروبة وبين المسلمين والعرب؛ فتحوّلت العروبة معه إلى وعاء للإسلام وتحوّل العرب إلى حاملي لواء الإسلام: «فإذا بالعرب والمسلمين في كلّ دولة يستسلمون للذلّ والطغيان... وهكذا، أيّها المواطنون، عادت الظلمة تنشر سوادها على العرب والمسلمين... وتوالت ضربات الاستعمار ولطماته... بل راح يدمّر كلّ مقوّمات العروبة والإسلام...».[٥٦]

وهكذا يحدّد جمال عبد النّاصر مقوّمات الصمود والتصدّي ويخاطب الأمّة قائلاً: «أيّها العرب، أيّها المسلمون: إذا أردتم الخلاص فهبّوا كما هبّ أجدادكم من قبل، في وجه الصليبيّين. فقد وقف العرب، مسلميهم ومسيحيّيهم، يدافعون عن حريّتهم وكرامتهم، حتّى علت راية العروبة، بينما هوت أعلام الظالمين».[٥٧] فلا تصلح الأمّة اليوم إلاّ بما صلحت به في الماضي، لذا يجب على مصر التي «طالما امتشقت حسامها للدفاع عن العروبة والإسلام» أن تقوم بواجبها على أكمل وجه وتحرّر أراضي العرب والمسلمين.

والوحدة كمفهوم قومي تتداخل مع الوحدة كمفهوم ديني في الخطاب السياسي عند جمال عبد النّاصر كما عند حسن البنّا. وفي خطاب في ٢٠ مارس ١٩٥٨ في ميدان الجمهوريّة يقول عبد الناصر: «هذا تاريخنا منذ ٨٠٠ سنة و٧٠٠ سنة و٦٠٠ سنة، عندما كانت دولة منّا تتعرّض للغزو، كانت تسقط إذا بقيت وحدها؛ وعندما كانت دولة منّا تتعرّض للغزو وتتضامن مع بقيّة الدول العربيّة كان العرب يستطيعون أن يهزموا أعتى الجيوش كما حدث في هزيمة الصليبيّين. ونحن في نفس الوقت نأخذ من التاريخ عبراً أخرى؛ ففي تلك الأيّام أيضاً في الوقت الذي وقعت فيه الحروب الصليبيّة، هاجمت هذه المنطقة من العالم جيوشٌ من أواسط آسيا، جيوش التتار الذين وصلوا إلى بغداد، فسقطت بغداد في أيدي التتار، واستولى هولاكو على بغداد، وأنهى حكم العبّاسيّين، ثمّ دخلت جيوش التتار سوريا...».

حسب عبد النّاصر، فإنّ غياب الوحدة يؤدّي إلى انفراط عقد الأمّة وعقد الإسلام سواءً بسواء.

ويرى عبد النّاصر استمرارية الماضي في غزوات الاستعمار. ذلك أنّ الاستعمار الحديث ليس منفصلاً عن الحروب الصليبيّة، كما أنّ الأمّة العربيّة غير منفصلة عن ماضيها المجيد. ولذا يقول الرئيس جمال عبد النّاصر: «ولم تكن مصادفة أبداً حينما وصل الجنرال اللنبي قائد الجيوش البريطانيّة إلى القدس، وقال: اليوم انتهت الحرب الصليبيّة. ما كانت مصادفة أبداً حينما وصل القائد الفرنسي الجنرال جورو إلى دمشق، ووصل إلى قبر صلاح الدين وقال له: ها قد عدنا يا صلاح الدين. لا بدّ أن نتذكّر دائماً أنّ هناك حرباً مستمرّة بين الدول الغربيّة وبين هذه المنطقة، من ٧٠٠ سنة حاولوا أن يسيطروا علينا ولم يتمكّنوا...».[٥٩]

وهكذا فإنّ القوميّة العربيّة في فكر جمال عبد النّاصر هي جزء

(٥٢) المصدر نفسه، ص ٥٤؛ وانظر ص ٥٣.
(٥٣) المصدر نفسه، ص ٥٦.
(٥٤) الدجاني، عبد الناصر والثورة العربيّة، ص ١٢١.
(٥٥) قال الرئيس، ص ٦٥.
(٥٦) المصدر نفسه، ص ٦٦.
(٥٧) المصدر نفسه، ص ٦٨.
(٥٨) المصدر نفسه، ص ٣١٠.
(٥٩) المصدر نفسه، ص ٣١٢.

من استمراريّة الماضي ومكوِّناته؛ فهي ليست مسألة مجاملة سياسيّة بل مسألة وجود وكيان واستراتيجيّة دفاع وانتصار. لذا فإنَّ الشعار الأساسي للقوميّة هو الوحدة وبدونها ينفرط عقد الأمّة وعقد الإسلام.[60]

***

ثالثاً: المنهج الفكري الإسلامي

يرتكز منهج عبد الناصر الفكري إلى الإيمان والتجربة في آن واحد. فالأفكار الدينيّة، كما جاء في الميثاق، ليست أفكاراً عفنة، بل «نحنُ نقول إنَّ الأفكار الملحدة هي الأفكار العفنة... والأفكار المبنيّة على الدين هي التي تعبّر عن إرادة الشعب وهي الأفكار التي تنمو وتترعرع».[61] ويقول «إنَّنا ـ بعكس الماركسيّة اللينينيّة ـ نؤمن بالدين».[62]

هنا يحدِّد عبد النَّاصر مصدرَ الفكر الصالح والمفيد وإطاره، ألا وهو الدين أو الإيمان. لكن هذا الدين لا يرتبط في فهمه بحدودٍ مطلقة، بل إنَّ فهم الإنسان يتفاعل مع الإيمان ويخضع للتجربة، أي للصواب والخطأ. من هذا المنطلق لا يرى جمال عبد النَّاصر ضرورة التزام الأشكال والتشكُّلات الماضية السياسيّة والاجتماعيّة كضرورة دينيّة، بل إنّه من الواجب أن تخضع هي لضرورات الاجتماع السياسي وأدواته العمليّة التي تعتمد على «العلم وحده» و«هو الذي يجعل التجربة والخطأ في العمل الوطني مأموني العواقب. وبدون العلم فإنَّ التجربة والخطأ يُصبحان نزعات اعتباطيّة قد تصيب ولكنَّها سوف تخطئ عشراتِ المرَّات».[63]

ولا يدّعي جمال عبد النَّاصر صلاحيةَ تنظيماته وفكره بالمطلق، بل يقول بجواز الصواب والخطأ السياسي والتنظيمي: «لا أستطيع أن أقول إنَّنا كنَّا على صواب فيما عملنا، وفيما سنعمل؛ ولكنَّنا متمسِّكون بالمبادئ والمثل العليا، وسنكون بإذن الله متمسِّكين بها دائماً».[64] لكنَّ الميثاق يسترشد ويستهدي بطريقة القرآن وعبره ولا يُشكِّل إلّا إطاراً عامّاً ومبادئ عامّة للعمل التي نتجت عن تجربة عشر سنوات.[65]

---

(٦٠) المصدر نفسه، ص ٢٦٢.

(٦١) الدجاني، **عبد الناصر والثورة العربيّة**، ص ١٣٠.

(٦٢) عبد النّاصر، **١٠٠٠ سؤال**، ص ١٤.

(٦٣) عبد النّاصر، **مقتطفات**، ص ١١٥.

(٦٣) المصدر نفسه، ص ١١٩.

(٦٤) المصدر نفسه، ص ١١٩.

(٦٥) عبد الناصر، **١٠٠٠ سؤال**، ص ١٨ ـ ١٩.

ويؤسِّس جمال عبد النَّاصر منهجه على أسس القرآن التجريبيّة والتدريجيّة وضرورات الواقع. فيقول:

> ... ولم يكن مطلوباً حتّى في ٢٣ يوليو أن أطلع ومعي كتاب مطبوع وأقول إنَّ هذا الكتاب هو نظريّة... مستحيل... لو قعدنا نعمل هذا الكتاب قبل ٢٣ يوليو لم نكن عملنا ٢٣ يوليو. في القرآن، كان يقدر ينزل مع سيِّدنا جبريل كتاب مطبوع ومجلّد، ويقول هذه هي النظريّة، هذا هو القرآن، وهذه هي العقيدة. وقد حدث غير ذلك ليعطينا ربّنا في حياتنا عبرة وعِظة. ابتدأ الإسلام بأشهد أن لا إلّه إلّا الله، وأنَّ سيِّدنا محمّداً رسول الله... ابتدأ الإسلام بهذا... بجملتين... لم يبدأ بكلِّ ما هو موجود في القرآن، ثمّ بدأ بعد هذا أيضاً الإسلام يعطينا عبرة وعظة في حياتنا.
>
> ٢٣ سنة لغاية تمام القرآن، وتمَّ نزول القرآن. لماذا فعل الله ذلك؟ فعله يعطينا الفرصة والوكيل أو الوسيلة التي نقدر أن نعمل بها في حياتنا وفي دنيانا.[66]

فهذا المنهج التجريبي هو منهج قرآني في أصوله وفي تطوّره، وهو منهج يقوم على شموليّة المبادئ والكليّات وتجريبيّة الفروع والجزئيّات. ويقوم هذا المبدأ على حكمة القرآن. فيقول عبد النَّاصر مكرِّراً:

> كان ممكن القرآن ينزل كتاب مطبوع ومجلّد في ثانية. محصلش، نزل في أكثر من عشرين سنة...
>
> ومع أن كان ممكن يكون القرآن أيضاً أحكام قاطعة محدَّدة من أوّل يوم، وربّنا قادر على هذا، ولكنّه أراد أنّه يدّينا سبيل للهدى وسبيل للاسترشاد. لمّا منع الخمر ممنعهاش من الأوّل مرّة واحدة قال: فيها إثم وفيها منافع، إلى آخر الآية. وقال: إثمها أكبر من نفعها...
>
> منقدرش نيجي النهاردة نأخذ الآية ﴿ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾. الحكمة الإلّهية بتدّينا دليل العمل علشان نتبعه.[67]

ويقدّر جمال عبد النَّاصر العمل والتجربة وشرعيّتها فإذا كان هناك «٥٠ بالمئة صواباً، و٥٠ بالمئة مع العمل، فهذا خير من لا عمل مطلقاً».[68] لكن شرعية العمل تقوم على التقدُّم، ولو جزئيّاً وعلى الإيمان والجهد، ولو حصل بعض الخطأ. فيقول في حديث له

---

(٦٦) مقتبس عن الدجاني، **عبد الناصر والثورة العربيّة**، ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٦٧) **١٠٠٠ سؤال**، ص ١٧ ـ ١٨.

(٦٨) عبد النَّاصر، **مقتطفات**، ص ١١٤.

عام ٦٩، وهذا بعد الهزيمة، «وحينما نتطلّع إلى ما كنّا فيه، ونقارنه بما وصلنا إليه، فإنّه لا يسعنا إلّا أن نتوجّه بالحمد والشكر لله عزّ وجلّ، وإلّا أن نشعر بالاطمئنان إلى ما يستطيع العمل الإنساني أن يحقّقه بالإيمان والصبر وبالجهد المستمرّ وبالأمل بالله.»[٦٩]

وبهذا المنهج التجريبي القرآني يحوّل جمال عبد النّاصر الهزيمة من قضيّة غيبيّة إلى قضيّة تتعلّق بكسب الإنسان وبتاريخ تطوّره واستعداده للتفوّق والنصر. فالتاريخ وتجاربه تعطينا الأمل، كما يقول جمال عبد النّاصر، «في أنّنا سوف نواصل تقدّمنا، الأمل في أنّنا سوف نتمكّن بعون الله من أداء واجبنا، الأمل في أنّ أعمالنا وتضحياتنا سوف تكون نصراً عزيزاً لنصر الله، الأمل في أنّ التاريخ سوف يسجّل لهذا الجيل من أبناء أمّتنا الخالدة أنّهم صبروا وثابروا وجاهدوا وناضلوا وكانوا جندَ الحقّ فنصرهم الحقّ نصراً عزيزاً بإذن الله».[٧٠]

فالعمل واجب ومن خلاله تستقيم أمور الأمّة. لكنّ النصر النهائي يتوقّف على وحدة الأمّة وتجمّع قوى الخير الذي لن يتأتّى إلّا بالمثابرة والتصميم على الوصول إلى الهدف الأسمى. فقضيّة فلسطين، مثلاً، قضيّة مقدّسة وواجب مقدّس، لكن تحريرها يتطلّب، علاوة على الإرادة والإيمان، التدريب والجهدَ والعلم.[٧١]

من هذا المنطلق، رفض عبد النّاصر الحلول المفروضة سواء من الداخل أو الخارج، ورفض التسويات التي تقوم على اغتصاب حقوق الأمّة وأراضيها، ورفض المشاريع المعلّبة للأمّة. كان يريد لها الإيمان بنفسها وبمنهجها: الإيمان في الإطار الكلّي والمنهج التجريبي في الإطار التنظيمي السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

في الختام، نقول إنّ إشكالية الفكر القومي مع الإسلام لا تتبلور في الخطاب النّاصري، بل إنّ هذا الخطاب يقوم على نفي هذه الإشكالية نظريّاً وعمليّاً. الإسلام هو النسق الحضاري الإيماني المولّد للأرضيّة المشتركة للشعوب الإسلاميّة والمحدّد للنظام القيمي المعياري. وأمّا العروبة فهي التحقيق الجزئيّ الفعليّ لهذا الإطار العامّ ومرتكزُهُ الفعليّ في التاريخ الماضي والحاضر والمستقبل. وهكذا تتماهى العروبة بالإسلام في الخطاب النّاصري ويرتبط تاريخ كلّ منهما بالآخر، ويصبح انتصارُ العروبة انتصاراً للإسلام وفشلُها فشلاً في تحقيقه.

(٦٩) وثائق جمال عبد النّاصر، ١٩٦٩ - ١٩٧٠، ص ١٢٧.

(٧٠) المصدر نفسه، ص ١٤٥.

(٧١) كلمات خالدة، ص ٧٣ - ٨٠؛ ومقتطفات، ص ١١٣.